

## الفصل الثالث العسكري الأسود

- ١- سحق الأدبية .
- ٢- تخريب الإنسان .
- ٣- سيكولوجية المعذب .
- ٤- لقاء النار .
- ٥- الصدع .



تكاد تجمع كل الأعمال الفنية على اختلاف أنواعها ومسمياتها على التأكيد على قيمة واحدة والإعلاء من شأنها ألا وهي قيمة الإنسان . بل كل نشاط فكري أو عملي لا يستهدف تلك القيمة فهو نشاط أجوف لا جدوى منه ، بل لا تقاس الحضارات البشرية إلا بهذا المقياس . فإذا كانت كل أنشطتها ومضامينها متفرعة من هذا الأصل فهي حضارة إنسانية قلبا وقالبا . أما إذا كانت تستبدل بتلك القيمة قيمة أخرى . فهي ليست بالحضارة الإنسانية . وأطلق عليه أي اسم من الأسماء ... حضارة المال ، حضارة المادة ، إلا أن تكون حضارة الإنسان .

### سحق الأدمية :

ماذا يفعل الضرب التعذيب والسجن والتكيل بالإنسان ؟

هل يسبب له نوعا من الألم الجسدي فحسب ؟

وإذا كان يسبب له ألما جسيما . هل يترسب هذا الألم في عقل الإنسان فتجعل

كل نصراته تتسم بالخوف والتردد ؟

التعذيب الواقع على الإنسان يخرج من جنس الأدميين ليسلكه في جنس

آخر لا صلة بينه وبين الأدميين ، فهو يهتك كل تلك الصلات والعلاقات التي تربطه

بصفة الأدمية ويححو كل تلك السمات والملامح التي تسلكه في مسلكها .

وهذا ما وقع على ( شوقي ) الشخصية المحورية في الرواية . وأحداث الرواية

تدور في أربعينات القاهرة ، وشعور بالضعة والضياع يجسم فوق صدور الشباب

المتقف ، شباب الجامعات في تلك الفترة السوداء من تاريخ مصر ، وعرض القاص

حياة ( شوقي ) على فترتين :

الأولى : قبل دخوله السجن وتعرضه لعذاب العسكري الأسود .

الثانية : بعد خروجه من السجن .

فقد كان شوقي من زعماء الحركة الطلابية في الجامعة ، وكان من الثائرين على الوضع الذي تعيش عليه البلاد ، وكان يؤمن بمجموعة من المبادئ يريد تحقيقها لتخليص البلاد مما تعانيه ، وربما هذا هو السبب الذي جمع تلك الشخصية بالقاص ، ( ١٢ ) :

( ربما السبب في الصداقة المهيمنة الكبيرة التي جمعتنا أننا كنا نؤمن رغم اختلاف طرقنا ووسائلنا - أن لنا رسالة واحدة نحن معوثو العناية لتحقيقها وإنقاذ بلادنا وتغيير مصير شعبنا تغييراً جذرياً وإلى الأبد ، وهكذا بدأت واسنمرت علاقتي بشوقي ) .

فقد كان ( شوقي ) يحمل رسالة . أو هو يضع مصلحة بلاده في المقام الأول مثل كل شاب وطني مخلص يسعى نحو هدف يحقق لبلده الحرية والتخلص من كل أغلال الاحتلال والتخلف ، وكانت لديه الإرادة والضمير والنزوة لتحقيق ما يظلمه ، وما يصور إليه ، ( ١٤ )

( فقد كان ( شوقي ) يتمتع بطاقة إرادية هائلة ، وكأنه ولد وهو يعرف بالضبط ما يريد ، ومتأكد أنه وأصل إليه لا محالة . وكان يبدو وكأن إرادته تلك ترسب إيمانه في قلبه طبقة فوق طبقة ، وكل يوم تزيد عمقا وتشعنا بطريقه فمال معها من أن يتزلزل إيمانه ذلك بإيمان جديد ) .

إذن ( شوقي ) لديه كل مقومات الإنسان الذي وضع لنفسه هدفاً يعمل حاصداً لتحقيقه ، ولديه القوة والإرادة ليحقق هذا الهدف ، وليس بالهدف الذي يتسم بالذاتية أو الأنانية ، وإنما هدف لمصلحة البلد أولاً وأخيراً .

تلك هي صفات ( شوقي ) قبل أن يدخل السجن ويتعرض لما تعرض له .

وبعد أن أخرج من السجن ، وعُين في المكتب العلي للمحافظة مع القاص اكتشف القاص هذا التغيير الذي قلب شخصية ( شوقي ) رأساً على عقب ، أما سبب هذا التغيير وما الذي حدث في السجن فيرجئه القاص إلى آخر القصة . فقد تغيرت نظرات ( شوقي ) عنها قبل أن يدخل السجن ، ( وكان أول ما لاحظته أن نظراته اكتسبت طابعاً آخر لم يكن لها كآن في عينه دائماً بريق يشع ويكسب ملامحه جاذبية خاصة ، جاذبية المؤمن بحقيقة تضيء نفسه ، وتفضح ملامحه الضوء الداخلي واشمه ويتركز النور في عينه ، وينقل للعالم صورة نفسه المؤمنة . ذلك البريق كان قد اختفى وكأنما اجتثت من جذوره ، ولم يبق لعينه اللعة التي تميز عيني كل كائن حي . كنت كلما نظرت في عينه أحس بإحساس غريب خاص يضايقي أي لا أستطيع إدراك كنهه ، وأني لي أن أعرف أن أستطيع أن أدرك كنه ذلك الإحساس إلا هناك وبعد أعوام طويلة في زمان ومكان كان مستحيلاً أن يحطرا على البال ) .

ثم أدرك أن صوته قد تغير ، الكلمات خائفة ترتعش تحرص على ألا يحدث صوتاً حتى صوت نبرات الحروف وهو لا يرى إلا ما أمامه فقط وكان نظراته قد صبت صبا وكأنه لا يعيش إلا لنفسه ، فهو لا يريد إلا أن يرى موضع قدميه أمّا

ما حوله فهو لا يهتم بهم ( ذلك الذي كان لا يهتم إلا بما حوله ، المتورد الثائر أصبح كالحمل الوديع يمزغ العشب في صمت وسكون لا نهاية له ) .

( ثم بدأت أعي أن صوت ( شوقي ) قد تغير فأصبح لا يتحدث إلا همسا همس مؤدب خافت كمن يتوقع دائما أن يرفض طلبه ...ثم هاتان النظارتان لا أقصد النظارات الطبية ، أقصد تلك التي تتركب للخيل لكي لا ترى إلا في اتجاه واحد هاتان النظارتان الخفيتان اللتان لا نجعلانه يرى إلا ما أمامه . وما أمامه فقط . أين هذا من ( شوقي ) المتلفت دائما حوله ، الباحث المنقب في كل شيء ، من أمير الدنيا والناس ، الغاضب القائر إذا وقعت عينه على الخطأ ، المهدد بالويل والتغيير وإخضاعها لما يريد ؟ ) .

وبدأ الخوف يعيش داخله . وينسخ خبوطه السوداء على أفكاره وأفعاله يحاف من كل شيء : يواجهه . يصنع قوقعة يحيطها حول ذاته . فقد أصبح كائن رحو سلسلت منه الإرادة . وكل ما يعطيه القوة لينحمل وجده وصرايات هذا الرجود ( ٢١ ) ( إذا كان أحوف ما يخافه أن تحل الكارثة مرة فيخطئ في حق لائحة من اللوائح أو قانون من القوانين ، هو الذي بدا عدوا لكل قانون أصبحت المسؤولية هي عدوه الوحيد اللدود يفعل المستحيل ليتجنبها . ومستعد أن يسير أميالاً إذا كان في السير ما يجنبه قفزة واحدة يتحمل فيها درهم مسؤولية ... إلى درجة كان يحيل فيها أحيانا أنه يود لو يشفى حسده ويشفى حتى يصح كائنا أثريا لا يتحمل مسؤولية إيجاد مكان له فوق سطح الأرض . أو نظرة يلقبها عليه إنسان ومع هذا تعجب لتمسكه بالحياة ونومه إلى الدنيا بطريقة يكاد معيا أن يتلعها لو استطاع داخل جوفه ) .

لقد أصبح كائننا معقدا لا يستجيب استجابات واقعية لمؤثرات العالم الخارجي ، وإنما استجابة خاضعة لنفس كائن حطمت داخله بوصلة الاتزان ومؤشر العقل ، ليحل محلها الخوف من كل شيء وعدم الأمان لكل شيء . ( ٤١ ) :

( وجوده انحصر كله وتآزر ليحقق هدفا واحدا . كيف يهرب من كل شيء حوله ، فالوقوف يعرضه لشيء لا يعلمه ولا يعرفه ، فلم يعد داخله ذلك ( الكنترول ) الذي يضبط ويحكم تصرفات وأفعال الإنسان ، إنما يريد أن يحقق كيانا ذاتيا خوفا من تحطيمه وهتكه . وكأنه حيوان هائم في غابة لا يريد أن يترك أثرا كي لا يكون دليلاً عليه أو مرشداً يقود الآخرين إليه . إنه يهرب من أن يكون إنسانا وكل تصرفاته وأفكاره تتمركز في بؤرة واحدة هي كيف يحيى صفته الأدمية فهو يعيش متخفياً أو متنكراً لا يعيش نفسه ولا يحيى ذاته ) .

( هناك حيث تدرك أن شوقي وإن ظل في ظاهرة بشرا ، فهو في حقيقته لم يعد يمت إلى الدشر ولا إلى أنواع الآدميين المتعارف عليها من عقلاء أو مجانين أو سوان . باستطاعتك أن تقول أنه خرج ليكون نوعاً جديداً قائماً بذاته . إذا قد خرج ليحيا بدافع جديد تماما على الجنس البشري ... فهو لا يحيا لتكاثر أو يبقى أو يتطور وإنما دافعه للحياة كان أن يهرب ويضر ، وكأنه لم يعد يرى في الجنس المشري كله سوى جن وعاريت همها أن تنقض عليه وتعقره وتفتك به هم جميعا شياطين ، وهو وحده الإنسان ، أو هم جميعا بشر وهو وحده الشيطان الذي يعادونه ويتربصون به ولن يهدءوا حتى يقضوا عليه ) .

هذا الكائن الذي يزداد انعزالية عما حوله ، وجدار العربة والوحدة يزداد سمكا وارتفاعا ليسجنه عما حوله ، يعيش مأساة حادة ، فهو مجبر وهو يقف هذا الموقف الذي صهرته نار الخوف والرعب من الآخرين على أن يحيا معهم وبينهم ( ٤٢ ) : ( ومأساته كان أن عليه أن يظل يحيا على ظهر الأرض مع هؤلاء الذين يخاف منهم ويرهبهم عليه أن يعاملهم ويتصرفوا في أمره ويتصرف في أمورهم ويصادقهم ويؤاملهم . هو الذي ينتفض رعنا منهم ) .

حركة مستمرة لا تكل نحو التقلص والتقوقع . والانحلال والذوبان . يخاف من ذاته من وجوده . أخشى ما يخشاه هو التواجد ، يريد أن يكون هلاميا ، كائن أثيري ، لا يراه أحد ، لا يشعر به أحد ، ( ٤٣ ) . ( ويسبي حياته لا عن طريق أعمال يضعها فوق بعضها ليكن هرمًا شخصيًا ولكنه ينيها إلى أسفل...وحفرها تحت الأرض بجحور متشعبة ملتوية معقدة كلما أحس في ححرفيها بخطر واهروا وتطلق يكون ححرًا آخر...إنه يعرفك ويقيم معك الصداقة أو الزمالة إمعانا في الترب منك ويحادثك أطراف الحديث ليأثيك عن نفسه . وينافقك أو يصنع معك المعروف لكي يرشوك ويتزوج كي يهرب من مسئولية عدم الزواج ويعمل في قومستون طبي المحافظة لكي يفر من السوليس والمباحث حتى ولو مكان الفرار إلى قلب الدوليس ) .

## تخريب الإنسان :

ولكن ما الذي تعرض له ( شوقي ) في السجن ليجعله كائنا غريبًا كل الغرابة ومنبت الصلة عنه عما كان قبل دخوله السجن، فالبشر يدخلون السجن ويخرجون منه كما دخلوا ، وإن أصابهم نوع من التغيير فهو تغيير لا يحيلهم أي كائنات غريبة هكذا .

فقد يتلقى الإنسان الضرب ، ولكنه لا يشعر به وإن شعر فهو شعور طفيف ولكن هذا إذا كان لديه حرية الرد أو حرية الدفاع عن النفس ، تلك الحرية تمثل خط دفاع داني يحفظ على الإنسان كيانه ويحفظ عليه آدميته أن تسحق وكل ما يتعرض له يكون هين التأثير إذا كانت حريته موفورة له ، وكل شيء هين يكون له أضخم التأثير إذا كانت حريته مسلوبة فهو يتلقى ما يتلقاه وهو إنسان .

أما إذا كان مسلوب الحرية ، فهو ليس بإنسان وكل ما يتعرض له يؤكد على هذا المعنى ويزيد من خروجه من دائرة الإنسانية ومركز البشرية ، فكل ما يتعرض له من ضرب وتعذيب هو نوع من التخريب والتدمير لقومات هذا الكائن الراقى انفجار داخلي حينما لا يجد الغضب والثورة قنوات ليخرج من ذات الإنسان ينفجر في الداخل ليهدم مراكز الإنسانية داخل الإنسان ولا يبقى إلا الشكل الخارجي للإنسان .

( ٥٠ ) : بالاختصار أنت لا تشعر بالضرب حين تكون حرًا أن ترده ، أنت تشعر به هناك حين يكون عليك فقط أن تتلقاه ولا حرية لك ولا حق ولا قدرة لديك على رده ... هناك تجرب الإحساس الحقيقي للضرب بألم الضرب لا مجرد الألم

الموضعي للضربة أو الألم العام الناتج عنها إنما بألم آخر محاسب أشبع ... أقوى من ألم الإهانة حين نحس أن كل ضربة توجه إلى جزء من جسدك توجه معها ضربة إلى كيانتك كله وإلى إحساسك وكرامتك كإنسان ضربة ألمها مبرح لأنها تصيب نفسك من الداخل إصابة مباشرة ، لا يحجبها أو يخفف منها جلد أو عظام أو حرية أو حق الإنسان أن يتصرف كالإنسان ويرد ، وهذه كلها جروح لو تعلمون عظيمة . أن حرية الإنسان ... حقه أن يرفض أو يقبل أو يرد الاعتداء جزء لا يتجزأ من حسده وكيانه ولحمه وجلده وأنسجته الواقية الحية وليست ملابسه أو جدران بيته التي تحفظ عليه ماء حياته كإنسان وتحميه وهي النبي إذ انتزعت منه لا يموت كما يحدث للسلحفاء إذ أنتزع غطاؤها . لبيته كان يموت ولكنه يبقى إنسانا منزوع الحق في حماية نفسه والدفاع عنها فما بالك إذا كان يُرغم على أن ينتزع هو بنفسه هذا الغطاء وتجبره القية الغاشمة على السكوت على تلقي الألم والسكوت ، على التنازل عن إنسانيته وحتى عن خصائص الحيوان ، حين يستحيل إلى كومة عارية من لحم الخائف مدعور لا تستطيع أن تعض أو ترفس ن عليها أن تتلقى الألم وتسكت عليه ن والسكوت على الألم أشد إيلاما من الألم من الألم نفسه خاصة إذا كنت أنت من تتولى إسكات نفسك ... هذا النوع من الضرب حين لا يبقى أمامك لكي تمنع أله وعاره إلا أن تحتمل وتصبره أو تقتل نفسك وتنتحر ، عمل لا يستطيعه ويقدر عليه معظم الناس ، حتى إذا قدروا فقا نون الحياة نفسه يرفضه ويمنعهم من إتيانه ، إذ كيف يعقل وأنت في موقف تدافع فيه عن نفسك ووجودك أن تشرع في قتل نفسك ومحو وجودك ؟ بالعكس ، إن أشبع ما في الأمر أنك لا تحتمل فقط وتصبر ، ولكنك تزداد استمساكا بالحياة وتصل بك حلوة الروح إلى درجة مخجلة

في شدتها وقوتها وهكذا في مقابل ضربة هائلة الألم عارمة القسوة مهينة تتلقاها من الخارج تنهال عليك من داخلك . ألف طعنة ألف إحساس مخجل مهين تمزق أحشاءك وتذيب كماء النار روحك لأنك لا تحدث ولا تريد الموت ولا تزال حيا تتمسك ذليلا بالحياة ) .

وأن يحتمل الإنسان الضرب أو يتلقاه هو نوع من الدفاع عن النفس وقوة هائلة وإرادة صلبة ن تلك التي تنبثق في نفس الإنسان حينما يتعرض للضرب والتعذيب . تلك القوة والإرادة هي دفاع داخلي لا إرادي لمقاومة الهجوم والاعتداء الخارجي الواقع على الإنسان . سمها حلاوة الروح . حب الحياة والتمسك بها ولكنها لا يكتشفها الإنسان وأنه مزود بها إلا وقت انبثاقها . فهي كائنة لا تظهر إلا في هذا الوقت ، قوة الكائن الحي . وإرادة الحياة ... أقمى إرادة في الكون ، واقوي قوة نأخذ بنواصي الأحياء في هذا الكون .

وتلك القوة مصدر عذاب آخر للإنسان . إذ ما فائدة وما جدوى التمسك بتلك الحياة ، وأي نوع من تلك الحياة وبداخل الإنسان يخرّب ويقتل أتمن ما يملكه إحساسه بآدميته .

أمّا سوط العذاب الذي دمر وخرّب ( شوقي ) فهو العسكري الأسود أو ( عباس محمد الزنغلي ) وهو شخصية قائمة بذاتها ويصلح أن يكون رمزا للقوة التي تستهدف في المقام الأول تدمير الإنسان . فعلاقة ( شوقي ) بعباس الزنغلي علاقة المعذب بمعذبه ، أو علاقة المخرب بمخريه ، علاقة معقدة غاية التعقيد .

وكان أول لقاء بينهما بعد خروج شوقي من السجن . ووصول ملف خدمة ( عباس ) لتوقيع الكشف الطبي لإثبات عجزه تهيئاً لفصله من الخدمة . وكانت أول جملة تقال في حق عباس على لسان ( عبد الله التمرجي ) الذي يعمل في المكتب الطبي مع ( شوقي ) . : ( ده خلاص يا بيه ...الرجل بقى يههب زي الكلاب ويهوى زي الديابة ) .

وحينما عرف ( شوقي ) أن ( عباس ) هو العسكري الأسود ، سوط عدابه كاشف عبد الله التمرجي والقصر بذلك ، حينما كان عبد الله يقص عليهما بعضاً من صفات عباس . ( ٥٥ ) . ( وكان جبار ... أعوذ بالله ...والله يعيني دي شفته قفلوا عليه الأوضة اللي في الدور الثاني بتاع المحافظة اللي قصاد المكتب الطبي في الدور الثاني على طول هو وواحد من السياسيين . وقعد يضرب فيه من صراحة ربنا والجدع يقول أي ! ..ولا هو سائل فيه .ولغاية ما روحنا الساعة خمسة وشرفك سنناه بيضرب فيه ) .

بعد ذلك اعترف شوقي للقاص عن أسر المضروب ، بقول : ( أنت عارف الي كان بيضربه العسكري الأسود في المحافظة ده م الصبح للمغرب عارف مين ... - كنت أنا .

وكان فرصة العمر قد لاحت لشوقي ليتقابل مع تلك القوة العمياء ، القوة الغاشمة التي دمرته وجعلته أطلالا . فبالرغم من إصرار عند التمرجي بأن يترك شوقي الحالة للحكماشى . ولكن شوقي أصر على الذهاب إلى عباس ليوقع عليه الكشف الطبي .

أما عباس الزنفلى فقد نشأ قويا متفوقا على كل أقرانه ، وطارت شهرته وصيته في بلدته ، وبعد أن انتهى من تأدية سنوات الجهادية تزوج من ابنة عمه ( نور) ونزح بها إلى مصر ، وإذا كانت حياته الوظيفية قد شابها كثير من الاضطراب والتقلبات والجزاءات في أول الأمر ، فقد استقرت ومنح ترقيات وعلاوات استثنائية ، هذا بعد أن أعجب بقوته رئيس الوزارة ، وأخذه ليصنع منه سوط عذاب لخصومه السياسيين ، وتفانى عباس في تأدية واجبه تفانيا عظيما فقد كان آلة تعذيب أحكمت صناعتها . فهو إذا سلط على أحد لا يتركه إلا بعد أن يتدخل اثنان يقاربه في القوة ليستخلصوا ما بقى من ضحيته . وأصبح رمزا لعود الإرهاب والعصف والتنكيل .

وعش عباس في هنية من العيش الرغد الزاخر . وأصبح محاطا بالريدين وأصحاب المصالح والمتلقين ، وكان يسهر معهم إلى ساعة متأخرة من الليل ، ولكنه ينحدر إلى سخس آخر حبا بفرد نفسه . ( ٧١ ) :

( إن عباس كان حين يذهب عنه الأصدقاء والزوار ويصبح البيت خاليا إلا منه ومنها ويذهب عنه المرح والضحك الذي كان غارقا فيه ، ويستمر على حلسته المتربعة منكس الرأس إلى أسفل شارداً في حزن مفاجئ لا تعرف سببه يبقى هكذا بالساعة والساعتين لا يتحرك ولا يحدثها ولا يغير من وضعه ، وإنما كان يحدث بين كل حين طويل وحين أن يرفع رأسه فجأة مسلا من صدره نهضة عميقة قائلا :

- إيه ... حكم ! ثم يعود رأسه يسقط ويعود إلى الحزن الشارد الذي كان فيه )  
مواجهة مع النفس ن يتذكر فيها الإنسان كل ضرر ألحقه بالآخرين .

## سيكولوجية المعذب :

إذا كان هناك ضرر واقع على المُعذب ، فسوف تصاب شخصيته بالكثير من التدمير والتخريب . ليحيله إلى شخصية منبثة الصلة بالإنسان السوي ؛ لأنها طمست كل الملامح الداخلية التي تميز الإنسان عن غيره من بقية الكائنات ، فإن الضرر يلحق بالمعذب أيضا .

ففي نفس اللحظة التي يقتل فيها القاتل فلانا من الناس يكون قد قتل نفسه أيضا . لأنه بارتكابه هذا الفعل ( الجريمة ) قد خرج أو أُخرج من عداد الجنس البشري . القاتل أيضا مقتول ، والقاتل هنا تم بيد القاتل نفسه . لأنه هتك القيمة الأدمية للإنسان . ليس لإنسان منفرد بالذات وإنما لكل إنسان على وجه الأرض وهو - القاتل - داخل هذا الحصر ، فالقاتل لم يقتل ذاتا إنسانية فحسب ، وإنما أوحد صدعا لقيمة نفس كيان وكرامة ووجود بني الإنسان جميعهم . وهو من أولهم وهذا ما حدث لعباس الزنغلي ، فقد مر بالأطوار التي مر بها شوقي ، فقد تغير ولم يعد هو عباس الذي تعرفه زوجته ( نور ) عين المعرفة ، وأصبح يهوهو ويهدهد وأراد القاصر أن يعطي للتغيير والتحول المعنوي الذي انتاب نفس ومشاعر عباس أراد أن يعطيه أبعادا مادية لكي يزيد من أثر التحول ، فأعطى بعض صفات امتعيزان المتوحش ، أو الكلب لعباس ، وكما تعود على تعديل وتدمير الآخرين فاستدار في نهاية الأمر على نفسه ليدمرها ويخربها .

لوم وتأنيب وتقرع من الجزء الحي الباقي فيه ، فمهما كانت قوة الإنسان في إخفاء هذا الجزء ، وتغليب وتعظيم الجانب الشرس في شخصيته ، إلا أنه في لحظات يضعف وتخور قواه ليستطع هذا النور ، نور الضمير ، وتبدأ عملية حساب

عسير، محاسبة الإنسان لنفسه . وحينما يحاسب الإنسان نفسه ، فهو من أغلظ القضاة أكابادا ... وهذا ما كان يشعر به ( عباس ) حينما يتفرد بنفسه ، وليس هناك من سبيل للنجاة من ذلك الحساب إلا بالهرب ... ووجد ( عباس ) الأفيون والحشيش خير منجاة من العذاب وتأنيب الضمير ، والمرحلة التي كان عباس يمر بها تشكل لغزا لزوجته ( نور) . فهي لا تدري ما سبب تغيره هكذا ، وكل ما تعرفه وتستيقنه أنه لم يع ( عباس ) . لقد أصبح شخصا غريبا عنها . لا صلة بينها وبينه حتى الفراش لم يعد يجمعهما حتى ظنت أنه ممنوع عبا : ( ٧٥ ) :

( إن عباس لم يعد عباس . لقد أصبح رجلا آخر لم تره أبدا ولم تعرفه ... رجلا آخر بطبائع ومزاج آخر .... غريبا لا تحس أبدا أنه زوجها الذي تزوجته ومن الواضح أنه هو أيضا . وقد عادى كل من كان يعرفهم وتغير ولم يكن قد تبقى سواها بجاسه . وكان واضحا أنه بدأ هو الآخر يستغربها وينكرها ولا يرعى لها شعورا ولا يهتم من أين تنفق أو كيف تدبر الأمور... ( أم على الحسادة ) تقول لها أن الأفيون قد غيره . ولكنها هي العليمة الخبيرة به تعرف أن الأفيون وضيق خلقه وشروده ونفوره من الناس عرض وليس سببا . السبب أكبر وأبعد من أن تستطيع وحدها إدراكه . لقد كانوا يحيون ككل خلق الله في أمان . فماذا حدث ؟ قالت لنفسها أنها العين وعين أم على بالذات . وأخذت من ( سملها ) ورق وتبخرت وقالت أنه عمل ودهيت لشبح العمولات ودفعت الأجر وذبحت الديك الأسود وحربت كل علاج ودواء . وحالة لا تسير إلا إلى أسوأ خاصة محرره لها في الفراش وذلك الذي طال وطال حتى اعتقدت أنه ممنوع عليها بسحر . التمسك فكه وفكته

وطل مع هذا ذلك الشخص الغريب الذي لولا الشبه الذي لم يتغير لما عرفته وظل هو يبعد عنها ويبعد ولا يكاد يحس بوجودها .

إنه معزول عما حوله . وكان منفذ وجوده سدت ، وصدره ضيق كمدا . فهو يتجرع العذاب أضعاف ما أذاقه لمن عذبهم . إنهم يلاحقونه في ليله ونهاره وضميرد لا يتركه يهنأ . لقد فعل ما يعاقب عليه . ولابد أن يعاقب نفسه على ما فرط في حب الآخرين . ( ١٧٧ ) ، ( كان عباس يبدو كمن جُن . يصحو صارخا مرعوبا إذا نام . وإذا أنفرد بنفسه تجده فحاة قد انتهال عليها - على نفسه - شتائم وسباب نفس شتائم ذات الألفاظ الداعرة . بل رأته مرة ينهي شتائم لنفسه بصفحة من يده يبوي بها على وجهه وقررت يومها أن لا بد من التعجيل بالفرار ) .

فهو وجود مدنس سعى جاهداً إلى تطهير نفسه بنفسه . ولا يحد إلى ذلك سبيلا سوى إنزال العقاب على نفسه عسى أن يخفف ذلك مما يعانیه من عذاب ولوم نفسي حاد .

## لقاء الثائر :

والتقى شوقي بعباس . ولكنه لقاء يختلف عن ذلكم اللقاء الذي كان يحدث في الماضي . ففي الماضي كان اللقاء يحدث في السجن . لقاء تخريب وتدمير من عباس لشوقي ، أما في هذه المرة . فاللقاء يتم في بيت عباس . بين مريض وطبيبه ولكنه كان أبعد ما يكون عن لقاء الأطباء بمرضاهم . كان لقاء المقتول بقاتله . المخرب بمن حربه . لقاء وجد فيه شوقي بعض العزاء لما سببه له عباس . هذا النوع من العزاء والراحة التي يشعر بها الشخص الموثور بأن خصمه قد نال جزاءه وكأن شوقي كان مقتولاً . وحسبما رأى عباس زُرث الحياة إليه مرة أخرى . ( ٨٤ ) :

( إذن في تلك اللحظة بدا وكان شوقي القديم ...شوقي الثائر قد دبت فيه الحياة من جديد وصحا وكأنه كان ميتا . محنطاً في مكان ما في جسده )

لقاء أغرب ما فيه أن شوقي يقف على قدميه وعباس طريح الفراش . وعندما تحدث ( شوقي ) مع عباس تحدث معه بعنف وفظاظة حتى أن زوجة عباس ( نور ) والقاص تدخلوا خوفاً من أن تمتد يد شوقي إلى عباس . وكان عباس يجهل شوقي . أو هذا ما توهمه شوقي . قال على نفسه تكبير عباس بكل شيء . بالكائن الإنساني المخرب . بأطلال الإنسان . الذي يسير على قدمين . وقل شوقي صرخت بنسج معاني الألم والمرق والحقد والعتب والانتقام . ( ٨٨ ) : ( ما تستعطش ... ما تعملش أنك ناسي ...مش فاكر العنبر ؟ مش فاكر عُلق الساعة خمسة ؟ مش فاكر دور تسعة ؟ مش فاكر النابيت ؟ مش فاكر الكرياح ؟ مش فاكر الدم ؟ مين كرابجك وديته مين ؟ مين صراخك يا وحش مين ؟ مين نعل جزمك الحديد ؟ مين كفك ؟

فين صوابك ؟ فين النار فين ؟ بص لي وانطلق وأتكلم اصرخ زي زمان ....سمعي صوتك اصرخ يا عسكري يا أسود بص لي وانطلق وأتكلم وصرخ .... ما تملش ناسي وإن عملت أفكرك ....حالا أفكرك . ولا أعرف كيف استطاع شوقي في تلك الومضة المتناهية الصغر من الزمان أن يخلع جاكنته وقميصه ويرفع فانتلته ويكشف ظهره وبالهول ما رقت عليه أنصارنا لم يكن في ظهره مكان واحد له شكل الجلد أو مظهره . كل جلده كان ندوبا بشعة تمتد بالطول والعرض وتتجمع في هضاب مندملة عن مناطق غائرة في قاعها نكاد تبدو عظام الضلوع . مشهد بشع يجعل القشعريرة تسري في جسدك لا لمجرد مرآه وإما لتساؤلك عن القسوة المتوحشة التي أحدثت كل ما تراه . لكأن دننا محنونا أو غولا قد أعمل أنيابه وأظافره في ظهر شوقي نهشا وتقطيعا وفتكا ) .

ولم تعد عضلة في حسد شوقي لم تنفجر بالغضب والثورة . تصرخ بكل هذا الألم الذي هتكها ربحا من الرمن وظلت تعاني منه ، وشارك الأعصاب في الصراخ العظام والعروق والدم . أصحح شوقي كتلة نار من الصراخ والحقد . هذا الصراخ استحال إلى عواء حقيقي . ألم يتحول شوقي – من خلال العذاب الواقع عليه – إلى حيوان يتلقى العذاب والالم في صمت قاتل وسكون مميت .

وكأن عباس وقد رأي ما حنت يداه محسداً أمامه . فأراد أن يهرب . وليس هروب من مكان إلى مكان آخر . ولكنه الهروب من الوجود ، نفس الهروب الذي كان يحاوله شوقي . أن يقلص وجوده ويظل يتقلص حتى يختفي أو يدوب في الأثير ( ٩١ ) ( أما عباس فقد ظل يسكب على شوقي نظراته المميته ولا يتحرك له حفن ولكن ما كاد صراخ شوقي يستحيل إلى عواء حتى رأينا كأن بارقة إدراك قد

تحركت فوق سطح العيون المينة أعقبتهما في الحال اهتزازات عاصفة لم تلبث أن تكشف عن نظرة ذعر راحت تتعمق وتتعمق وتصبح رعبا هائلا مقيما ، رعبا جعل الحياة تدب أيضا في الجالس المكوم نصف جالس وتدب على هيئة خوف ، فبدأ ينكمش على نفسه وينكمش ويزحف بزوجه بعيدا إلى آخر الفراش ، ويصغر حجمه ويتكور ولم أكن أتصور أن الإنسان في انكماشه يستطيع أن يصل إلى هذه الدرجة من الصغر . الدرجة التي تكاد تعتقد معها أنه لو استمر ينكمش بنفس السرعة لتلاشى واختفت الكرة الإنسانية عن الوجود... وربما رغبة هذا وانكماشه هو الذي جعل شوقي يطارده ويتقدم في اتجاهه ويتضخم كلما رآه وينكمش ويقترب كلما ابتعد ، مطاردة لم يوقفه الفراش فقد ارتقاه شوقي واستمر يتعقبه ويصرخ فيه ويعوى ولا يكف ، وربما رعبه الهائل هو الذي حال من ناحية أخرى بين شوقي وبين الانقراض عليه وإزهاق روحه ) .

ولم يتذكر عباس شيئا إلا حينما سمع عواء شوقي ، كأن العواء هو المفتاح الذي فتح أبواب عالم عباس ، عالم الكلب والذئب وكل تلك العائلة من الحيوانات الضارية المتوحشة ، من الحيوانات التي لا تتورع أن تنيش لحم بني جنسها بل به ، عالم الضارب فيه ذئب يجد لذته ومتعته في التدمير والتمزيق والتخريب والمضروب فيه أفضل أنواع الحيوانات ، فهما لا يفهمان غير العواء لفة ، والهدية معنى ، وارتفع عواء وهيبة عباس ، بل استطال فعه وكأنه أصبح فم ذئب شرس وأصبح دثنا حقيقيا يود الاهتراس ولعق الدماء ، وبالفعل يفترس أقرب الناس إليه زوجته . ( ٩٢ ) : ( أطبق الفم المفتوح على يد الزوجة القريبة منه ، وبدأ يلوكها بين أسنانه ويضغط كمن يهيم بالتهامها واحتملت الزوجة قليلا وهي ترجوه أن يتركها

ولكننا وجدناها فجأة - وكأنما أدركت أن يدها على وشك أن تتمزق - تطلق صرخة أعلى من كل عواء وهدهبة تعقدتها بصرخات سمعنا على أثرها دق الجيران على الباب ) .

وحيثما لا يجد ما يفترسه يفترس نفسه ، وإن كان قد افترس نفسه من قبل حينما اعتدى على إنسان وأخرجه من جنس الأدميين بتعذيبه ، وأنزله إلى درك الحيوانات . وقبام عباس بتعذيب نفسه ، هو نوع من عقاب الذات للذات ، على ما أنزلته من عذاب بالآخرين ، فيقول بعد بطلب هذا الرجل المسمر سار الدب والمشعل نائب الضمير ، ( ٩٣ ) :

( لولا أن عباس أهوى بضمه على لحم ذراعه النحيلة التي كانت تبدو من كم الجلدا الممروق ، وظل يضغط وينظر إلينا بعيون ملتبهة تحترق ، ويضغط ولعابه قد غطى الدراع العارية ومن كثرته بدأ يتساقط ويسيل ، وهو لا يكف عن النهش والضغط وكأنما هو لا يحس أو يتألم أو كأنما الألم يدععه إلى مزيد من الهياج وغرس أسنانه في اللحم وكان لا بد أن يحدث ما حدث وأن تدير النساء وجوههن وأن ندير وجوهنا معهن ، ما عدا شوقي فقد لمحتة لا يستدير وغنما يظل يفترس في وقعته مستمتعا بما يراه . وحين عدنا مرة أخرى بواحه عباس تبين أننا لم نكن قد نحاشينا الكثير باستدارتنا ، فقد وجدنا وجهه قد ارتفع عن الدراع حقيقة ، ولكن الدم كان يتساقط من فمه ويحتلط بلعابه إذ بين أسنان الفم التي كانت انفرجت عنها الشفاة كانت هناك قطعة لحم مدماه ، القطعة التي نجح في نهشها من ذراعه . ذراعه التي كانت لا تزال في مكانها فوق ركبته ، ومكان العضة فيها قد أصبح جرحا منتهكا بشعا ، وكان عباس الزنقلي لا يزال رغم وحود قطعة اللحم

بين أسنانه يعوي ويههب بصوت مكتوم وكأنه ينزف من صوته والدم قد بلل  
عوائه وخنقه ) .

وكان - ما أصاب عباس - جزاء وفاقا لما أوقعه بشوقي وبغيره . فقد هان  
عليه أكل لحم الآخرين ، فهان عليه أن يأكل لحمه ( وما ظلمناهم ولكن كانوا  
أنفسهم يظلمون ) . وكما قال شوقي للقاص بعد ذلك وكأنه أدرك هذا القانون  
الأزلي . ( ٩٥ ) : ( أتعرف أنك حين تؤذي غيرك تؤذي نفسك دون أن تدري ؟ ومرة  
يسرح ويضحك فجأة ويتزل : دع الضارب يضرب ، فيده التي تضرب تمتد أيضا إلى  
دات نفسه ) .

وكما قالت أيضا ( أمر على الحسادة ) أناء خروج القاص والتمرجي وشوقي من حجرة  
عباس . ( ٩٧ ) ، ( لحم الناس يا بني .....اللي يدوقه ما يسلاه ....يفضل بعض إنشاء  
الله ما يلقاش إلا لحمه ، أल्पف يارب بعبيدك ) .

## الصدع :

الإنسان لوح من زجاج ، قد يكسر ، ومع ذلك لتلتمم لقطع بعضها إلى بعض وتعيد اللوح الزجاجي ، ولكنه لن يعود كما كان أبداً ، فهناك الذي لن يجبر فالإنسان كائن معقد . ليس من البسير فهمه أو إرجاع تصرفاته لدوافعه الأولية . إذا هدمت مقوماته الإنسانية . وقوضت دعائمه البشرية ، فإعادة بنائه تعد من المحال ، وإن حاولت فتلك المحاولة مقضي عليها بالفشل منذ البداية .

وقد حدث صدع في شخصية شوقي . وكان يظن القاص أنه بعد أن شاهد شوقي ما حدث لعباس وما انتهى إليه الأمر أنه سيشفى مما به . ويعود ما كان في بادئ الأمر إنسان سوي له تطلعاته أهدافه ويستقبل الحياة بكل جرأة وإصرار ولكنه أكثر أحراراً خطأً ، وأن سرفي سبطل على ما شر عليه . ( ١٩٦ ) : ( وفيما عدا هذا كفتني بضع جلسات مع شوقي أن أؤمن أن الحالة التي رأيته عليها وملأني بالأمل كانت كصحية ما قبل الموت . وأن ما حدث له من تغيير والكائن الجديد الغريب الذي أصبحه طريق لا يمكن الرجوع منه ، لا يمكن أن يعود الجلد الطبيعي مكان الندبات التي يحفل بها ظهره ، أحل ! أدركت ما فاتني إدراكه طوال سنين ... أدركت أن شوقي وقد فقد أمنه البشري مرة لن يعود أبداً مثلنا بشراً مرة أخرى ) .

ونلك الشخصية تحب الحياة ، وكأن هناك قوة تدفعها لذلك ، بدون أن يجد لتلك الحياة غاية أو هدف ، لا يشعر بالوجود لا يستمرئ شيئاً من طاقاته ، منعزلاً عما حوله . سلبي ، ل شيء يستثيره أو يحركه ، وكأن الوجود أمامه موات ، كما

مات الإحساس بالوجود داخله . فليس هو بالميت ولا هو بالحي . فقد وصل إلى منطقة انعدام الوزن . الموجود فيها لا يشعر بقوة تدفعه إلى الأمام ولا إلى الخلف ولا ترتفع به ولا تنزل . فقد سحقت تلك القوة العمياء التي لا تجيد سوى اغتصاب الحياة . وقذف الظلام والخوف والرعب في قلوب البشر .